الإلحاد، أيديولوجيا الإنسان المبتور

شفيق جرادي(*)

أيّ إنسان يريده الدين؛ وأيّ إنسان يريده الإلحاد؟ سؤال مقيم ترسم محاولات الإجابة عنه مسار الجدل الحادّ الذي يتوسّع يومًا بعد يوم بين طرفَي النزاع. وفي حين يصرّ الملحدون على تحرير أنفسهم من قيود الدين وصولًا إلى قطع الصلة به نهائيًّا، يتفطّن المتديّنون لمآلات الانجرار وراء التركيز على عناوين من قبيل «الإرادة الحرّة»، مثلًا، ويجدون فيها توظيفات يحرص خصومهم من خلالها على جذب الانتباه وتحفيز الآخرين على الانضمام إلى ركبهم. ولمّا كان الإنسان محور هذا النقاش المحتدم، فإنّ رهان أهل الدين منعقد على مقابلة الخصم بتوظيفات أشدّ إحكامًا لا تنقض جوهر حرّيّة الاختيار عند الفرد، ولكنّها في الوقت عينه لا تبالغ في إطلاق يده من غير عقال، وذلك لكيلا لا يؤدّي الإمعان في نبذ الدين إلى «بتر» قسريّ وقهريّ للإنسان عن الدور الذي يريده الدين له. وهو دور لا يني المتديّنون يؤكّدون على أنّه ـ وإن حُفَّ بالتزامات ومعايير تتفاوت في اتّساعها ومرونتها ـ يحفظ الإنسان من الانقطاع العبثيّ والعدميّ عن مرجعيّة أخلاقيّة وقيميّة ضامنة.

مصطلحات مفتاحيّة: الإلحاد؛ الدين؛ الإسلام؛ الإنسان؛ الفلسفة؛ العلمنة؛ الإرادة الحرّة؛ الوعي؛ ريتشارد دوكنز؛ سام هاريس.

مرّت فكرة الإلحاد بمسارات دلاليّة متنوّعة، فيها ما يشير إلى زحزحة معنى مباحث الإلهيات عن معناها الحقيقي، كما أن فيها التنكّر والجحود للقيم المنتسبة للدين، فضلًا عن التشريعات والأحكام الدينية. هذا ولم تبتعد الفكرة عن رفض أصل الدين والإيمان الغيبي.

وبالعودة إلى هذه المسارات يمكننا أن نلحظ الفلسفة، أو بعض الفلسفات، كيف قدَّمت نفسها في حدود عالم الممكنات ولم يرقها التطلّع نحو ما هو فوق الوصف الطبيعي، كما أن بعضها ذهب لطروحات ندّية مع الدين.

(*) مدير معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية.

لننتقل بالصورة إلى مرحلة عاصرت النص القرآني مع الملاحدة الذين فهموا المضامين الإلهية المقدَّسة فهمًا لم يقبل به الكتاب العزيز. من هنا، علّق المفسّرون على المصطلح بالقول: «﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾[1]، من لحد، وقُرئ (يلحدون) من ألحد، وألحد فلانٌ مال عن الحق، والإلحاد ضربان: إلحادٌ إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهِنُ عراه ولا يُبطله، ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[3]. والإلحاد في أسمائه على وجهَين: أحدهما: أن يوصف بما لا يصح وصفه به، والثاني: أن يتأوَّل أوصافه على ما لا يليق به، والتحد إلى كذا مال إليه»[4].

إذن، الوصف لهذا الحال من ما يعنيه المصطلح هو:

١. الميل بتطرّف عن جادة الحق، وهو أمرٌ يعود غالبًا إلى المزاج النفسي، وهوى النفس.

٢. وقد يأخذ معنى السطحية في قراءة مصدر الوجود، بحيث يوصل للقول بالشرك بالله، فيُصوِّر لكل ما يتأثّر به هواه إلهًا خاصًّا. أو أنه ينحو منحًى تفسيريًّا يجعل فيه نظام الأسباب في كثير من مظاهر الطبيعة بيد غير الله سبحانه. وهذه هي القراءة التي قد يعطيها الملحد طابع الفلسفة أو الأيديولوجيا، والتي توصل في مؤدّاها إلى نفي التوحيد كأصل، أو إعاقة تفسير التوحيد باعتباره الأصل الحاكم في الرؤية الكونية التي يدعو إليها الإسلام كما الأديان التوحيدية.

٣. وهناك نحو من الإلحاد، هو الإلحاد في التصورات الدينية والإلحاد التأويلي للدين، بحيث يلقي على الأسماء والصفات الإلهية معانٍ وتصورات تحرّفها عن حقيقتها وجادّتها. كأن يفرض على الأسماء معان عُرفية، أو اصطناعات جدلية بين الأسماء ليفرض مؤدًّى هو إبراز التناقض وعدم التناسق بين الأسماء والصفات الإلهية.

واللافت أن مجموع هذه الأمور التي أشرنا إليها ما زالت مُحتضنةً اليوم عند المدارس الإلحادية المعاصرة، ولو بأشكال وصيغ متفاوتة. من ذلك، أن القاعدة الفعلية للإلحاد المعاصر تقوم على ذاتية الفرد في هوى علاقته مع النُظُم والتشريعات الدينية، بحيث إن ما لا يناسب هواه

(١) سورة النحل، الآية ١٠٣.
(٢) سورة الحج، الآية ٢٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.
(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق هيثم طعمي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة ١، دون تاريخ)، الصفحة ٤٦٧.

يصبح عُرضةً للتنكر والاستهزاء والرفض الجذري لأصل الدين باعتباره مصدر تلك الأحكام والتشريع، وهنا عين الميل عن الحق وصولًا لرفضه. وقد كان واضحًا أن ما من إلحاد نتج عن فلسفة أو علم تخصصي، بل إن الموقف النفسي ومزاج الهوى الرافض للدين هو الذي شجّع التذرّع بفلسفة هنا وفلسفةٍ هناك، أو فرضية علمية هنا وهناك، صارت عند هؤلاء متكأً يستقوون به في مواجهة الدين بقيمه وتشريعاته وصولًا لمبادئه واعتقاداته. فكيف يصح مثلًا من أمثال دوكنز أن يقدِّم نفسه كفيلسوف في الوقت الذي لو راجعت فيه كتابه **وهم الإله** لن تجد جملةً واحدةً صيغت بلغة فلسفية، فضلًا عن اعتبار هذا الكتاب، كتابًا علميًّا. اللهمّ إلا أن صارت الأدبيات الدعائية في عصرنا فلسفةً تبني رؤى. وبقليل من التمعن في كتاب **نفي اللاهوت** لأونفري تستنتج أن المقدّمات التي بنى عليها ما ادّعاه فلسفةً إن هي إلا مقدّمات نثرية صيغت بأسلوب شاعري ليس له في محالِّ الفلسفة مكان أو نصيب. لذا، فإن الموضوعية تقتضي الفصل بين الإلحاد والفلسفة أو الإلحاد والعلم أولًا، وتقتضي ثانيًا تحديد وظيفة الفلسفة والعلم قبل الحديث حول وظيفة الإلحاد.

إذ الفلسفة هي هذا القلق المدهش الذي يعتري الإنسان على الدوام، ويعبِّر عنه بالسؤال الباحث عن إجابة تتطلّع نحو يقين معرفي يستند إلى البرهان.

فيما أن العلم هو عين هذا الاختبار أو ذاك الذي يولّد عند الذهن فرضيةً ما، يسعى الباحث لاكتشاف نظرية ما من خلال البحث في تلك الفرضية.

مما يجعلنا نقول إنّه لا انحصارية نظريةً للعلم أو للفلسفة، بل هما أمران متاحان لكل أحد، إلّا أنّ بعض الناس قد يستفيد منهما في مبتنيات أيديولوجيّة كما هو الحاصل مع الإلحاد. ففي الوقت الذي تتمهّل فيه الفلسفة قبل أن تولّد يقينًا، ويتواضع العلم قبل التفكير في بناء أي نظرية، فإن الإلحاد يسلك درب المغالطات في استدلالاته، ويقتحم عالم المناظرة الجدلية بأنماط من الشعرية والأدب السافر لتثبيت افتراضاته.

لكن من الواضح أن موارد القوّة لدى الاتجاه الإلحادي إنما استمدّها من أمرَين:

الأمر الأوّل: موقعيته التي يتموضع فيها باعتباره خارج الحدث والتأثير العام بشؤون بناء المجتمعات والمؤسسات الرسمية، مما سمح له تتبّع عثرات كل سلطة، خاصةً سلطة الدين والتراث، وإجراء صور نقدية هي أقرب لكونها إعلاميةً منها لتكون بانيةً لمشروع حياتي فاعل. من هنا، نجد وفرة التقاطعات بين الإعلام والإلحاد على دروب الشذوذ الأخلاقي - الاجتماعي، والنشاز الفكري - الثقافي. ولا يخفى مدى سلطة مثل هذا التعاضد الإعلامي - الإلحادي اليوم.

وهو الذي يوفر للاتجاهات الإلحادية فرصة إحداث ضجيج عالمي هو أقرب ليكون ظاهرةً صوتيةً عابرةً للأثير منه ليكون ظاهرةً إنسانيةً حقيقيةً.

الأمر الثاني: نجاح الاتجاهات الإلحادية في توظيف التيار العلماني لمصلحتها، ومصلحة انتشارها. فالعلمنة كما هو معلوم، استطاعت أن تفرض على الحضور الديني وبمستوًى عالمي، ضريبة الإذعان لنمط الحياة العلمانية، حتى إن أعرق المؤسّسات الدينية الكنسية صارت تعتبر الاعتراف والمدح والثناء بالحياة العلمانية لازمةً في مقرّراتها وتوجيهاتها.

ولكن ما ينبغي الالتفات إليه، أن العلمنة في أفضل حالاتها إنما تخوض مع المؤسّسة الدينية معركة إثبات الوجود، سواءً على المستوى السياسيّ أو الاقتصادي، أو على مستوى إدارة المجتمع والدولة والعلاقات الكونية، ولمّا لاحظ أقطاب العلمنة الأثر البالغ للقيم الدينية وتأثيراتها في بناء الفرد باعتباره محور المعالجة الإنسانية الأولى، فضلًا عن تأثير القيم الدينية في بناء أسس المجتمع الثقافية والروحية، فقد أقرّت العلمنة بالدين، بل وبالمؤسّسة الدينية، وعملت على إجراء تفاوض عميق بينها وبين المؤسسات الدينية. هذا وبغض النظر عن نظرتنا للعلاقة بين الدين والعلمنة، فإن العلمنة لا يمكن أبدًا اعتبارها إلحادًا؛ إذ فارق بين من يقتصر في إدارة شؤونه على الحياة الدنيا، كما هو الحال مع العلمانية، وبين من ينكر أصل الوجود الممتد ما بعد الحياة الدنيا، كما هو الحال مع الإلحاد. وفارق بين من يخوض معركة الإنسان الدنيوي في مواجهة المؤسّسة الكنسية، ومن يخوض معركة الأيديولوجيا النقيضة للدين ومقدّساته واعتقاداته كما هو الحال مع الإلحاد. وما اعتماد مفردات حرية التفكير، والاعتقاد، والأنسنة، وغير ذلك إلا استعارات من قاموس العلمنة اجتذبتها الحالة الإلحادية إلى أدبياتها دونما تدبّر، بل ودونما تناسق بين تلك الشعارات وأيديولوجيا الإلحاد. ويكفي تصفّح لغة القمع وإقصاء الآخر التي تضج بها الكتب الإلحادية للدلالة على هذا الأمر. وإننا وإن لم يكن بمقدورنا في هذه العجالة إثبات الفاصلة بين مفردات العلمنة والإلحاد، فإننا سنكتفي بموضوع محوري لإظهار ذلك، وهو موضوع «محورية الإنسان».

الإنسان في أدبيات متنوّعة

لقد أجرى الدين، بالغالب الأعم، حكمه وقضاءه في حق الإنسان؛ إذ اعتبره مخلوق الله، وأولاه قيمةً منسوبةً لمصدره (الله)، فالله هو الذي كرّمه، والله هو الذي خلقه على صورته.

إلى هنا ليس في الأمر أي ضرر. لكن أن لا تكون للإنسان إرادة؛ إذ الإرادة هي لله إن شاء الله هداه أو أضلّه، وبيده مصيره إن شاء أسعده أو أشقاه. أن لا تكون للإنسان معرفة؛ إذ الله هو

العالم وهو إن شاء علّم الإنسان، وإن شاء أودعه في غياهب الجهل، بل وأكثر من ذلك، كل إرادة تختلف مع إرادة الله المقرّرة في قاموس المؤسّسة الدينية، أو معرفة هي خارج علم المقرّرات الممثّلة لدين الله، هي سقوط في البدع والهرطقات تستحق المواجهة والحرق واللعن الأبدي.

وهكذا تمّ الحكم بالقبض على الإنسان في روحه التوّاقة نحو الاستقلال في رسم القرار والمصير، وفي إبداعاته الفكرية والعلمية، بل تمَّ القبض عليه في قدرة صناعة الحياة التي هو فيها. الأمر الذي دفع هذا المخلوق لربه، ليبحث عن منافذ الخروج من الأصر والأغلال، ولو من خلال الدين، ومرةً بعد أخرى. ثم بعد ذلك أخذ القرار الذي يفيد أن (الأنا) هي التي تفتح العلم والإبداع والحياة، بل إنّ (الأنا) هي التي تصنع بدل الإله الواحد آلهةً، منها ما هو غيبي مفارق، ومنها ما هو محايث للطبيعة وقوى الإنسان المتنوعة والمتعدّدة.

وقد أفرز هذا التمرّد الممزوج بالتوق نحو الحرية، والرغبة في الذاتية والأنانية آلاف الآلهة عبر التاريخ، بل هو أفرز قرار الانفصال عن الإله.

الدافع كان سبب الانفصال، لا الواقع، لكن بما أن الإنسان قادر على اختلاق آلهة فلِمَ لا يستطيع اختلاق وقائع؟! لِمَ لا نجعل الواقع هو ما نحن عليه هنا، وما خارجه إن هو إلا سراب وتيه؟! لِمَ لا نعتبر أن الغيب هو عدم لا طائل منه؟!

كل هذا كان من أجل «الإنسان المِحْوَر» الإنسان الخلّاق.لم يكن الهدف إنكار وجود غيبي، أو التنكُّر لنعمة غيبية طالما أنها لا تضير بمحورية هذا الإنسان. لقد دخل الإنسان في هذه المرحلة دائرة التفاوض الصلب مع الله ممثّلًا بالكنيسة، ولقد اصطف العالم كلّه ليرى وليترقّب مستقبل هذا التفاوض القاسي، ما الذي سيعطيه إنسان الانفصال عن الله لممثّلي الغيب من مؤسّسات كنسيّة، وما الذي سيقدّمه ممثّلو الإله للإنسان المنفصل؟!

اختلف الخط البياني في هذا التفاوض كثيرًا ضمن مندرجات ونتائج وصيغ تنوعت عبر الزمن، وتشاكلت أو تغايرت في الهويات القومية والدينية. لكن المشهد استقرّ على صورة غلبة الإنسان المنفصل على ممثّلي الإله من كنسيين وغيرهم؛ إذ صارت السطوة الحضارية له، والدولة كما المجتمع بمؤسساته، صارت دولته ومجتمعه، وهو الذي يقرّر حجم مشاركة كل مؤسّسة دينية، وبما يتناسب مع رؤيته وأفكاره وأيديولوجيته، وهي أمور قد تختلف مقاديرها من زمن لآخر، ومن دولة لأخرى، وهوية قومية أو ثقافية وأخرى. لكن هذا الانعطاف الكوني، حافظت فيه البشرية على صيغة التفاوض بين ما هو ديني، وما هو علماني، ولم تصل الأمور إلى القطيعة النهائية أبدًا؛ لأنّ القطيعة ستعني نسفًا لطرفَي التفاوض، الدين والعلمنة، فلو ذهبنا بعيدًا

بالدين عن الإنسان لوصلنا إلى السلفيات والألفيات القاتلة للذات الإنسانية بالمجان، وهذا ما يدل عليه الواقع القائم، ومسار التاريخ. ممّا سيساوي نفي الدين الإلهي ونفي الحق الإنسان في آن واحد. أمّا لو ذهبنا بمدّعي الإنسان بتعميق الشرخ بينه وبين الدين، فسنصل للإلحاد المبني على قيم الإقصاء الكامل؛ إقصاء واقع الغيب، وبالتالي إقصاء كل غيب إنساني، من روح وعقل ومشاعر ونفس وإلى ما هنالك، من أمور ننسبها للغيب، وأخلاقيات إنسانية تتولّد منه.

فكل إحساس هو وليد غير الله وغير الإنسان أيضًا، كما ينقل صاحب كتاب **وهم الإله**: «ما يؤمن به غالبية الملحدين هو أنه على الرغم من أن الكون مادّيّ بحت، فإنّ العقل والجمال والعواطف والقيم الأخلاقية، وباختصار كل ما في سلسلة الظواهر التي تعطي الحياة الإنسانية، قيمتها قد انبثقت منه»[1]. إذًا، منه (الكون المادّيّ) انبثقت كل هذه العواطف والعقل والقيم، وما هي إلا مندرجات سلسلة من الظواهر الطبيعية. وهو الأمر الذي دعا صاحب كتاب **وهم الإله** ليخصّص فصلًا مستقلًّا في كتابه يشرح فيه كيف أن مصدر الأخلاق هو محض بيولوجي - أي ليس غيبيًّا - كما ويفسِّره على ضوء الداروينية. فالطبيعة هي الموئل، وهي الخالق، وهي المصوِّر. وليس من دور هنا لله أو للإنسان. فالأوّل والآخر هي الطبيعة وحدها، وهذا سياق طبيعي مؤدّاه نفي الإنسان في لحظة نفي الإله.

ومن الواضح أن هذا السياق الإلحادي الرديف لما يقابله السياق التكفيري الإقصائي، السلفي والألفي، إنّما هما خارج كل سياق حضاري إلهي أو إنسانوي. فلا استقلالية للإنسان كما عليه العلمنة، ولا واقعية للغيب كما عند الأديان.

وبالتالي، يتحول المجتمع الإنساني في الفكرة الإلحادية إلى مجرد ظاهرة جامدة في الطبيعة، وهي خارج الحضارة كما خارج الدين. أما الناتج الذي تولّده الفكرة الإلحادية فهو «الإنسان المبتور».

وما الإنسان المبتور، إلّا ذاك الذي انفصل عن حقيقته، عن تاريخه وهويته وذاته وقيمه، بحيث إنه تنكّر لذاته في الوقت الذي تنكّر فيه لمصدره الوجودي والتكويني. ذاك المصدر الوجودي الذي صوّره الإلحاد مستنكرًا، إنه «الإله [الذي] يتدخّل بشكل حميم في شؤون البشر، يستجيب للصلوات ويغفر ويعاقب الأخطاء»[2]. من هنا، بحثوا عن مصدر للمشاعر غير الإله، فما أنتج بحثهم سوى الغدد البيوكيمائية، بل إنهم منعوا أصل العقاب والقانون حتى لو كان

(١) ريتشارد دوكنز، **وهم الإله**، ترجمة بسام البغدادي (ستوكهولم: دون ناشر، الطبعة ١٢، ٢٠٠٩)، الصفحة ١٦.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٢٠.

مذنبًا، وذلك لما يمكن لفكرة القانون أن تفتح على فكرة الوجود ما فوق المادّي في الإنسان. ولا نملك إلّا أن نسأل عن هذا الإنسان وحضارته التي لا قيم فيها ولا عواطف ولا قانون كيف يمكن أن تكون؟! وإذا كان أوّل معول هدم أمسك به الملاحدة هي «كسر القداسة»، فإنهم آلوا إلى نتيجة هي كسر وهدم أقدس ما في الإنسان وهي روحه وعواطفه وحياته؛ إذ ليس هذا الكائن سوى معادلة في الطبيعة ليس إلا. وهكذا كان من الضروري تحطيم رموز الكينونة والهوّية الذاتية للإنسان بدءًا من الإله الذي ليس عندهم سوى إله «هو من أسوأ الشخصيات [...] غيور [...] ويدقّق بالتوافه، وظالم وغير عادل، ومتسلّط وقاسي ومنتقم وكاره للنساء والمثليين [...]»[1]. وغير ذلك من المواصفات التي ألبسوها ثوبًا سلبيًّا لأنها تختلف عن المزاج الفردي لهذا المتبنّي للإلحاد، فكيف لا يتوافق إله الأديان مع الهوى الشذوذي للمثليين والمتحللين أخلاقيًّا؟ كيف لا يتوافق مع الرغبات والنزوات التي اعتبروها طبيعيةً؟ ومن أجل النزوة وكُرمى لعيون «طبيعتهم» إذن فلتكن مشيئة منطق الإلحاد برفض أصل الإله والدين. أما الطريقة الأمثل لتحقيق الأمثل لمثل هذا الفتك بكل مقدّس فهو السخرية. توماس جفرسون أصاب كعادته غالبًا عندما قال: «السخرية هي السلاح الوحيد الواجب استخدامه»[2]. لكن نحو من سيتوجه هذا السلاح؟! إنه بحسب صاحب **وهم الإله**، وبلغة أيديولوجية صارمة ليس ضد الخرافة، بل حسب هذا الأيديولوجي المتعنّت «أنا لا أهاجم نوعًا معينًا من الآلهة. أنا أهاجم الله، كل الآلهة، أي نوع من الآلهة، كل ما هو خارق وماورائي أينما وحيثما وُجد أو سيوجد»[3].

وما هذه الحدّة في الموقف إلا لغاية هي «هل يريد غولد حقًّا أن يعطي الحق للدين للفصل بين الجيد والسيء؟ إن عدم استطاعة الدين تقديم أي شيء آخر للإنسانية، لا يعطيه الحق بأن يملي علينا كيف نتصرف [...] لماذا لا نستبعد ذلك الوسيط ونختار قيمنا بمعزلٍ عن الدين؟»[4].

هذا هو السبب إذن، أن نختار ما يناسبنا. ما يناسب الأمراض النفسية والرغبات اليومية غير القانونية وغير الشرعية وغير المألوفة. ما يجعل الخروج عن الأسرة بسبب الشذوذ الجنسي ممكنًا.

هذا هو «الإنسان المبتور»، والذي كان أوضح من تحدّث حوله من خلفية أيديولوجيا

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٣٥.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٣٨.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٥٩.

الإلحاد الكاتب «سام هاريس»، والذي سأتوقّف مع كتابه **الإرادة الحرة**، وهو باحث أمريكي وصفه «كريستوفر هيتشنز» بأنه: مقاتل يهودي ضد السلطة الدينية. وهو فضلًا عن رفضه اعتماد الدين مصدرًا للأخلاق، فإنه يرى ضرورة رمي الدين بتهمة السحر والشعوذة والتنجيم، وهو بفضل كونه ملحدًا ضد الدين نال الدكتوراه في علم النفس الإدراكي.

بذل سام، وما زال، مجهودات كبيرةً لنقض الدين، وخاصةً الإسلام. ويعتقد البعض أن السبب في ذلك يعود ليهوديته. من هنا كان يصرّ في بعض محاضراته على عبارة ماذا لو كان الإسلام صحيحًا؟! فسندخل جميعنا الجحيم!! أيّ إله هو هذا؟!

في نموذجنا الذي سنعالجه هو فعلًا حالة مرضية تحتاج إلى عناية في التدقيق، وملاحظة جملة أمور على طول الطريق، أذكر منها:

١. ادعاءاته العلميّة دون إقامة أي دليل.

٢. زيادة منسوب المزاجية الشاذّة في ذاتيتها المستعلية والحاكمة على كل شيء.

٣. تجريد الإنسان من كل معنوية أو قيمة طهرانية.

٤. الأدلجة في اصطناعه البديل الأخلاقي اللا ديني واللا قانوني للإنسان.

٥. وسم الإنسان بسمة الكائن البيولوجي المبتور عن كل شيء.

إنسان البتر الإلحادي

يشرع صاحب كتاب **الإرادة الحرة**، في كتابه، من رفض أن تكون هناك إرادة، بالمعنى المعهود لمعنى الإرادة الإنسانية، فضلًا عن أن تكون تلك الإرادة حرةً. وهو مطمئن أن رفضه هذا سيثير عاصفةً في المجتمع الإنساني؛ وهذا ما يطمح إليه كل دعاة الإعلام الإلحادي سواءٌ بثوبه المسمّى علمًا أو غيره. لذا، فإنه يعلن قائلًا: «لو حدث أن أعلن المجتمع العلمي، كون الإرادة الحرة وهم؛ فإن الحرب التي سيثيرها هذا الإعلان هي أكثر ضراوةً من الحرب التي أثارها موضوع التطور»[١].

(١) سام هاريس، **الإرادة الحرة**، ترجمة هبة خطّاب، إعداد حميد الخطّاب، على الرابط:
https: www.facebook.com/notes/heba-mohamed
سُحب الكتاب نهار الاثنين ٢٠١٧/٣/٦ الساعة ١٢،٥١، الصفحتان ١ و٢.

وعليه، فلِمَ لا يأخذ «هو» هذا المجد ويثير الفوضى في كل شيء ويحقّق نجوميته الإعلامية؟ لكن، كيف سيشق الطريق نحو هدفه؟! إنه يبدأ من النقطة الأكثر أثرًا في حياة المجتمع «الإنسان» بما يستتبعه، إذ «تتعلق مسألة الإرادة الحرة تقريبًا بكل ما يهمّنا: الأخلاقيات، القانون، السياسة، الدين»[1].

فهو هنا سيعلن حربه على كل هؤلاء، ودفعةً واحدةً، بإعلانه إسقاط الإرادة الحرة بالضربة القاضية. أما البديل الذي سيحقّقه عند ذلك فهو أن يصبح «المذنبون والمجرمون مجرّد ساعات [...] وأيُّ تصوّر للعدالة يتطلّب عقابهم[...] سوف يبدو غير منطقي»[2].

لكن ما هي الإرادة الحرة حسب هاريس؟

«إن مفهوم الإرادة الحرة يرتكز على افتراضَين:

١. أن كلًّا منّا كان بإمكانه التصرّف بشكل مختلف عما فعل في الماضي.

٢. أننا نمثّل المصدر الواعي لمعظم أفكارنا وأفعالنا في الحاضر [...] كلا الافتراضَين خاطئ»[3]. إذن لا إرادة ولا وعي، بالتالي لا حرية.

ذلك أن «الإرادة الحرة هي وهم، نحن ببساطة لا نصنع إرادتنا [...] لا نملك سيطرةً واعيةً عليها، نحن لا نمتلك الحرية كما نعتقد [...] في واقع الأمر الإرادة الحرة هي أكثرها وهمًا»[4].

وما بعد الوهم إلا العدمية، في العدمية نحن، إذ لا الدين الذي يشعل فينا جذوة الإرادة والوعي، ولا العلمنة المبنية على توقّع الإرادة الحرة صائبان في تحديد حقيقة ماهية الإنسان؛ لأن هذا الإنسان الذي هو «نحن، [إنما يعي] جزءًا ضئيلًا من المعلومات التي تقوم عقولنا بمعالجتها كل دقيقة»[5].

نحن حتى في خياراتنا اليومية «أردت القهوة أكثر ممّا أردت الشاي اليوم [...] هل اختيار القهوة وليس الشاي واعيًا؟! لا»[6]. لا وعي منّا لشيء لأننا نعيش في كهف فيزياء الجسد وهناك

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٣.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٤.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٩.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٨.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة ١٣.
(٦) المصدر نفسه، الصفحة ١٣.

«المخ يحرّك السلوك قبل الوعي»[1]. لا وما الذي ستكون عليه حالتي الذهنية القادمة؟ لا أعلم. إنها فقط تحدث. أين الحرية في ذلك؟! صحيح أن من الصعب المرور على هذا الاستفزاز لهويتي الإنسانية، لكن التمهّل والحلم هنا الإرادي والواعي ضروري ليعرف القارئ حدود هاوية العدمية التي يأخذنا إليها الإلحاد هنا، خاصةً عندما يقول: «من المهم أن نتبين أن القضية التي أبنيها هنا ضد الإرادة الحرة لا تعتمد على فلسفة مادّية [...] لا يوجد شك أن معظم، إن لم يكن كل الأحداث العقلية هي نتيجة للأحداث الفيزيائية [...] لكن حتى إذا ما كان العقل البشري مصنوعًا من أشياء روحية لن يتغير شيء في حجتي. العمليات غير الواعية للروح لن تعطيك حريةً أكبر مما تعطيك الأعضاء غير الواعية لمخّك»[2].

من المؤكّد أن هذا النص لا يعتمد على أي فرضية أو طريقة علمية؛ إنه محض تخرّص أيديولوجي يعترف الكاتب فيه بجملة أمور:

أولًا: أن لا فلسفة في الكون، حتى تلك المادّية منها، يمكنها القبول بمثل هذا البتر للإنسان عن ذاته وإرادته ووعيه.

ثانيًا: إن القهر أو الجبرية الفيزيائية هي صانعة الأحداث العقلية، وعليه لا ميزة لأحد على آخر إلا بحسب تركيبه الفيزيائي القهري. وهذا من أصعب الأيديولوجيات القهرية التي تقصي الإنسان عن ذاته. ليكون مجرّد معادلة.

ثالثًا: في الوقت الذي يريد أن يتنازل جدلًا ويعتبر أنه على فرض روحانية العقل، فإنه لا يستطيع أن يعبِّر عن تلك الروحانية إلا باعتبارها أشياء. وهذا نتيجة أنّ «كل إناء بما فيه ينضح». فمن لم يميّز المدى الروحي عن الشيئية المادّية كيف له أن يعرف طريقة اشتغالات الروح في النفس وقواها الإرادية والإدراكية؟!

رابعًا: إقراره أن المخ وتركيباته غير واعية، والعجيب كيف يمكن لفاقد الشيء أن يعطيه؟! اللهمّ إلّا أن نقول: إنّ كل ما أفرزته غدد الإلحاد عند هذا الرجل هو محض هراء، لا وعي فيه، بحسب قوله ولوازمه.

لهذا، فإن الدرك الأخلاقي الذي سيؤهّل نفسه إليه صاحب هذا الاتجاه، لا حدود له.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٥.

(٢) المصدر نفسه، الصفحتان ١٨ و١٩.

واللافت هنا هو أنه يعي، بل ويقصد عن وعي هذا المسار الذي يسير فيه ويتحرك من خلاله، فتفسيره للحركة الفيزيائية في مخه تفيد بحسبه «أنّ أكثر المختلّين عقليًا إثارةً للرعب، سوف يبدون ضحايا هم أنفسهم، اللحظة التي نرى فيها تتابعًا للأسباب التي تسبق قراراتهم الواعية، وصولًا إلى مرحلة الطفولة وما بعدها، يبدأ إثمهم بالاختفاء»[1]. إن كان الفعل نتيجةً لهذا الامتداد اللا متناهي من الأحداث الفيزيائية للذهن والتي تدفع كل أمر وفعل نحو البروز، فلن يمكن هنا أن نحاسب مجرمًا على إجرامه، لأن الجريمة لم تأت نتيجة لإرادة أو وعي، بل هي الجبرية الفيزيائية التي فرضت ذلك. من هنا، فإن فروضاته الفيزيائية تؤسّس للقاعدة التالية: «أنت لم تعد مسؤولًا عن الشيء القادم الذي سوف تفكّر فيه بنفس درجة مسؤوليتك عن ولادتك في هذا العالم»[2].

فلِمَ العقاب، بل ولِمَ القانون إذن؟ وما هذه النتيجة إلا لرفض أسباب وجود الدين والثواب والعقاب. فالإرادة هي مبرّر كل ذلك. فعندما تكون «قوة الإرادة نفسها هي ظاهرة بيولوجية»[3]، إذًا، لا مبرّر لشيء. وهذا ما جعل الرجل مبتهجًا بنفسه حينما حدّثنا عن ذاته قائلًا: «إنّ فقدان الحس بالإرادة قد حسَّن أخلاقي»[4]، لن يشعر بالندم ووخز الضمير حتى لو دمَّر العالم بزرٍّ يضغطه لتفجير قنبلة هيدروجينية مثلًا.

وهكذا تتحوّل الحياة إلى عبثية لا هدف فيها لأنّ «هذا الفهم يكشف لك بالطبع حقيقة أنك دمية بيوكيميائية [...] قليل من الطعام قد يكون كل ما تحتاجه شخصيتك»[5]. نعم هنا، وكما كل مرة صدق الله العلي العظيم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[6].

دمية. الإنسان مجرّد دمية بيوكيمائية يلعب بها نحو جديد من القدر المعاصر. إنه البيوكيمياء التي هي لا شيء، ونحن مخلوقاتها التي اعتنى الإلحاد على بيانها بلهجة هي أشبه ما تكون بلغة العرّافين، الذين يقبضون على الحقيقة المطلقة. وهذه المرة معبد هؤلاء العرّافين هو هيكل العلم -حسب مدّعاهم- وطالما أنهم مأخوذون به «بلا إرادة»، و «بلا وعي» فهم إنّما يتلقّون إشاراته السريّة خلسةً من وراء الحقيقة والوجود والإنسان.

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٦.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٤٨.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٥٢.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٦١.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة ٦٣.
(٦) سورة الفرقان، الآية ٤٤.

إنسان بلا امتداد، إنسان بلا أفق، إنسان بلا حياة أو إرادة أو حرية ووعي. هذا هو الإنسان المبتور.

وإن أردنا أن نجري في حقّ مثل هذا الإنسان أي حكم، فسنكون أمام إيعازات عرَّاف الهيكل التي يُرسلها بلا ضابطة من عقل أو فهم أو وعي، عندما يتمتم وهو بحالة من الثمالة بأمور منها:

أوّلًا: أن كل ما عند الإنسان هو رغبات هوجاء عبثية لا قصدية لها، إذ لا حرية لها «فأين هي الحرية عندما تنتصر إحدى هذه الرغبات على منافستها لسبب غير معلوم»[1]. إلى أين يحيلنا عرّاف الهيكل هذا، الذي رفض الإله لأنه لم يقبض عليه داخل اختباراته. ثم فجأةً يأخذنا لنتبنّى حكم رغبة غير معلومة. لماذا ليست معلومةً؟ ألأنها هي المصدر والموجِّه؟ أم لسبب آخر؟ هنا يسكت كل الناطقين من عرّافي الهيكل عن الكلام، لأن الحاكم هو الفراغ والعدمية.

ثانيًا: إيغالًا في رفض الوعي ودوره الوظيفي الحاكم في حركة الإنسان الموصول بالله سبحانه، والمنسجم مع كينونته فإنّه يقرّر «من المشكوك فيه أن الوعي في حدّ ذاته يضيف أي شيء لهذه العملية العصبية في عملية التحكّم في الفعل»[2]. كيف اكتشف ذلك، علمًا أنه قد رفض أصل وجود الوعي هنا؟ كيف يحكم على نوعية تأثيرات وجود لا يقرّ بوجوده؟ ما هذا الشيء وضدّه؟! نعم، إنه الهذيان، فلا يمكن للعرّاف إلّا أن يهذي ليستشعر من حوله بقداسة غموضه واستثنائيته.

ثالثًا: وهنا يعترف عرّاف الهيكل بإلهه الذي اصطنعه «ببساطة فإن الكون يمدّني بحياتي العقلية»[3]؛ أيّ حياة عقلية هي هذه، طالما الوعي والإرادة والحريّة معدومة؟ ما معنى الكون هنا، الطبيعة أم الجسد أم شيء آخر؟ لغة هلامية لم تنبنِ على تأسيسات، ولم ترشد إلى مستقر، لكنه يريد أمرًا واحدًا أن إلهه، أو عجله الذي يعكف عليه هو من صنعه داخل الهيكل، ثم انتسب إلى عدميته. ظنًا منه أن بإمكان هذه اللغة أن تشكّل سحرًا يحيي الموات، بعد إفناء كل قيمة من القيم.

رابعًا: مرةً جديدةً لتأكيد ما أسلفناه، يقرِّر الإلحاد المعاصر القول ويؤكّده «إذا ما نظرنا للناس كأنماط عصبية، كيف بإمكاننا الحديث بشكل متجانس عن الصح والخطأ، والخير والشر؟ هذه

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٧.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٣٠.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨.

الأفكار تبدو وكأنها تعتمد على كون الناس لديهم حرية التفكير والتصرّف»[١].

لا معايير ولا قيم إذًا، إذ لا صواب أو خطأ كما لا خير أو شر؛ لأن نتيجة هكذا معايير، الاعتراف القبلي بوجود الوعي، ووجود الإرادة. ووجود هاتان الخصلتان يساوي وجود الإنسان السوي المنسجم مع الرؤية والقدرة على اجتراح المصير. وهنا محل وجود مبرِّر الدين والأخلاق والقيم الإنسانية.

لذا، فالأمر مرفوض عند أرباب الإلحاد المعاصر. مرفوض إلى درجة أن يصيغوا إنسانًا مبتورًا عن كل شيء في سبيل إقصاء الدين والقانون والحياة الأخلاقية.

خامسًا: للوصول إلى النتيجة في أيديولوجيا الإلحاد، فإنّنا مضطرون أن ننصت للتقرير النهائي لهاريس عندما يقول: «يبدو واضحًا أن الرغبة في العقاب، والتي تنبع من فكرة أن كل شخص هو المؤلّف الحر لأفكاره وأفعاله، تستند إلى وهم معرفي وعاطفي، وترسّخ وهم أخلاقي»[٢]. «لا يمكنني أن أعتبرك مسؤولاً عن سلوكيات لا يمكنك التحكّم فيها»[٣].

أمّا لماذا هي أوهام، فبصراحة يقول: لأنه قد «أعطانا الإيمان بالإرادة الحرة مفاهيم كالخطيئة، والتزامنا نحو العدالة العقابية»[٤]. إن أي صورة تُظهر السلوك في موقع مفهوم الخطيئة، أو تضعنا أمام وجه العدالة في العقاب والثواب، هو يُرسلنا للإيمان بالدين، من هنا كان لا بدَّ من نفيه، وهو مفاد قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ...﴾[٥].

فإن النتيجة التي ستؤول، بل ما آلت إليه هو نسيان الذات الإنسانية، لذا كان الرفض العنيف للإرادة الحرة، وهل الإنسان إلا الإرادة الحرة؟!.

وهذا مصداق قوله سبحانه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾[٦].

إنّ التوتر الخانق الذي أصاب الملاحدة ليس نتيجة أفكارهم، بل إن أفكارهم هي نتيجة شخصياتهم المتوتّرة والمبنية على الشذوذ العاطفي والجنسي، مما خلق عندهم بيئةً لأفكار

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٦٦.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٧٧.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٧٧.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٦٦.
(٥) سورة الحشر، الآية ١٩.
(٦) سورة الحشر، الآية ١٩.

مخنوقة تتجه باندفاعة نحو عدمية تشبه الانتحار الجمعي، وهو نوع غريب من ألوان الانتحار الذي يتقصّد جذب «الكاميرا»، و«الصورة»، و«المناظرة المثيرة»؛ هو نحو من الصوت العالي الذي يخفي كل ألوان الخوف والضعة والتمزّق في الذات.

برأينا، إن السبب في ذلك يعود لأنهم تعمّدوا أن ينسوا الله فأنساهم أنفسهم، وهذا ما خلق صنفًا من «الإنسان المبتور». وبالطبع هو إنسان لا ديني، وعلمنته شاذّة وغير نقية لأنه يتنكّر حتى لعمارة الحياة الدنيا، أما من هو هذا الإنسان الشاذ، فإننا نحيل الأمر إلى علماء النفس الذين درسوا حالة الملاحدة، وكان لهم رأي فيهم، ونحن ننتظر أن يُدلوا بدلوهم فيما يخص صنوف الملاحدة، وبحسب مناطقهم وبيئاتهم الثقافية الخاصة؛ وذلك لأن الإلحاد حالة خاصة تتفاوت من بيئة لأخرى وليست ظاهرةً قابلةً للتعميم.